تهليلة الموت والشهادة ، شعر توفيق زياد
(دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٢)

تطرح مجموعة توفيق زياد الجديدة : **تهليلة الموت والشهادة** ، موضوع فعالية الشعر ووظيفته الاجتماعية والسياسية بشكل حاد . فالشعر الفلسطيني المقاوم داخل الارض المحتلة هو امتداد لثلاثة تيارات فنية : الادب الشعبي الفلسطيني المقاوم ، الشعر الفلسطيني في الثلاثينات والاربعينات ، والتيارات الفنية الواقعية في المشرق العربي . من هنا نستطيع ان نفهم ظاهرة التمايز النسبي التي يتحلى بها هذا الشعر . فهو قبل كل شيء شعر يلتزم قضية شعبه . المشاكل اليومية ، ومحاولات التذويب والتهجير ، تفرض عليه خيارا واحدا : اما الالتزام الثوري بقضية الشعب او ان لا يكون هناك شعر فلسطيني على الاطلاق داخل الارض المحتلة . من هنا نستطيع ان نفهم الروحية القتالية والجماهيرية التي لهذا الشعر . فهو لا يستطيع بحكم واقعه ان يتخلى عن الهموم اليومية والعادية . كما انه لا يستطيع ان يغرق في البحث عن الاشكال الجديدة خلف الجدران . ان البحث عن الشكل الجديد لا يمكن ان يقوم خارج دائرة المعركة التي يخوضها الشعب الفلسطيني . والشعر المقاتل بحكم وظيفته الجماعية لا يستطيع ان يسمح لنفسه بالبعد عن الناس . انه يكتب لهم وبهم .

على هذا الاساس تأتي الاهمية التاريخية لتوفيق زياد . فزياد ما زال يحاول ويقوم بالتجارب الفنية في سبيل خلق لغة شعرية بسيطة وسهلة، تستطيع ان تستوعب التراث الشعبي والثوري وتقوم باعادة كتابته من جديد . وشعره كان دائما لصيقا بالهموم اليومية ، بالناس العاديين وبالتراث الشعبي الثوري . وفي مجموعته الجديدة يتابع زياد عملية بحثه هذه . وان يكتسب هذا البحث الآن مزيدا من العمق والرؤية الشمولية للاحداث، فانه يبقى متوكئا على التراث الشعبي ، انه يحاول ان ينطلق من محاولتين ثوريتين مهمتين : المقاومة وكومونة باريس ليستخلص الدروس ، وليمجد النضال الشعبي العربي والاممي ، مستعيرا صوت الكادحين ، محافظا على صوته الخاص الذي يكتسب عمقا تاريخيا في تفاؤله الثوري العميق بالنصر .

تتألف مجموعة توفيق زياد هذه من قصيدتين طويلتين . **عمان في ايلول** . **ومئة سنة على كومونة باريس** . الرابط بين القصيدتين هو المحاولة الثورية الفاشلة . في عمان سحقت المقاومة تحت ضربات النظام الاردني وفي باريس سحقت الكومونة قبل مئة سنة تحت ضربات البرجوازية الفرنسية المتعاونة مع الالمان . الرابط المشترك هو الموت والشهادة والتفاؤل التاريخي بالنصر . لكن طريقة المعالجة والفهم التاريخي للحدث يختلفان في القصيدتين . فبينما نجد في قصيدة **عمان في ايلول** نفسا شعبيا حارا وصادقا يحاول ان يرسم صورة للاحداث واضعا اياها ضمن التفاؤل التاريخي العام ، معطيا في نهايتها وجهة نظر سياسية في المذبحة وكيفية تداركها في المستقبل ، نجد ان هذا الصوت يصبح اكثر عقلانية واكثر موضوعية في **مئة سنة على كومونة باريس** حيث البطل الرئيسي والوحيد هو الطبقة العاملة وحيث يمكن وضع الكومونة في السياق الثوري الذي أوصل إلى ثورة اوكتوبر السوفياتية .

١ — في قصيدة **عمان في ايلول** ترتفع التهاليل الثورية عبر خمسة اناشيد. القصيدة، بانشيدها الخمسة ، تتكامل مثل لوحة متعددة الالوان . كل نشيد له لونه الخاص وموسيقاه الخاصة . والقصيدة بمجموعها تعبر عن حادث واحد يمكن النظر اليه من خمسة مواقع . ولا تتكامل الصورة دون هذه المواقع مجتمعة .

النشيد الاول ، « تهليلة الذين يرفضون ان يموتوا ويرفضون ان يستسلموا » هو عبارة عن اغنية شعبية تمجد القتال . الايقاع البسيط ذو الصوت الواحد واللازمة التي تتكرر دائما ، تعطي لهذا النشيد طابعه الشعبي والملتصق بالناس العاديين .

« يا حادي العيس دب الصوت في الشطين
تكسر السيف في كتفي انا نصفين
لكنني فوق صلباني اقاتلهم
فخذ فؤادي وروحي واعطني سيفين ».

هذا الصوت الشعبي ، الذي يرى في المعركة تهليلة حقيقية ، واضعا اياها في مستوى الصوت الباحث بين اغانيه القديمة عن مستقبله الذي